من أحسن الحديث
مثل الحق والباطل

بقلم الشيخ؛ أبي قتادة الفلسطيني
عمر بن مجمود أبو عمر

{أنزل من السماء ماءً فسالت أوديةً بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحقّ والباطل فأمّا الزبد فيذهب جفاءً وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال}.

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله.

سورة الرعد امتلأت بذكر الآيات الكونيّة، فذكرت رفع السماء، وتسخير الشمس والقمر، ومدّ الأرض، وذكرت الجبال والأنهار، ونبّهت إلى عظمة الله في تنوّع الخلق مع وحدة المصدر، وذلك في تنوّع الثمار مع أنّها تُسقى بماء واحد، وأقامت أمام ناظر الإنسان شاهدي البرق والرعد فخوّفت بهما، ومنَّ الله عليه بالسحاب، وختمَتْ هذه الآيات الكونية بقوله {ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال}.

ولمّا كان الأمر القدريّ بالتكوين والخلق، والأمر الشرعي بالنهي والحضّ هما من مصدر واحد هو الله تعالى، كان لا بدّ من تذكير الإنسان بما غاب عنه أو جهله أو عاداه بما يراه ويحسّه ويشهده، ليكون له فيه العبرة، وليكون عليه شاهدا وحجّة.

فكان المثل القرآني العظيم: {أنزل من السماء ماء.. كذلك يضرب الله الأمثال}.

- **والمثل والأمثال:**

"هي وشي الكلام، وجوهر اللفظ، وحلي المعاني"[1].

---

[1] العقد الفريد لابن عبد ربّه، 3/63

قال الإمام الجرجاني: (واعلم أنّ مما اتّفق العقلاء عليه: أنّ التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصليّة إلى صورته، كساها أبَّهَة، وأكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي البلاد الأفئدة صبابة وكلفا، وقسَرَ الطباع على أن تعطيها محبّة وشغفا.. وإن كان وعظا كان أشفى للصدر، وأدعى للفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر بأن يجلي الغَيَايَة - أي الحجب - ويبصر الغاية، ويبرئ العليل ويشفي الغليل)[2].

وهذه الآية القرآنية درّة تتلألأ، أنّى جئتها وجدّت لها نورا وضياءً، ووالله لو مثلتْ خَلقا في هذه الدنيا لأبصرها الناس جوهرة لاشية فيها، وجهها صاف، وكذا جوفها، لها ألف وجه، تبهرك كيف جئت إليها، ومن أي الوجوه نظرت إليها.

ولا أذكر أنّي وقفت في تمثّل المعاني مع أيّ كلام كما تمثّلت في هذه الآية وهذا المثال، فسبحانه ما أعظم كلامه وما أحسنه.

في الآية؛ دليل على حكمة الربّ في خلقه، وذلك بتنوّع الخلق من أجل الفتنة والابتلاء.

وفي الآية؛ دليل على جريان السّنن في هذه الدنيا سواء كان إسناد الفعل إلى الربّ {وأنزل} أو كان إسناد الفعل إلى الخلق {يوقدون} وفي قراءة مشهورة {توقدون} فسنّته لن تتخلّف.

وفي الآية؛ أنّ الخير لا يأتي بالشرّ، ولكن الشرّ هو قدر لا انفكاك لهذه الحياة عنه، ولا يتصوّر الحياة بدونه: {وأنزل من السماء ماء فاحتمل السيل زبدا رابيا}.

وفيها؛ أنّ هناك من المنافع للناس لا تقع على أساس الفطرة القدرية كما في أصل خلقتها، بل لا بدّ لعمل الإنسان فيها ليتحقّق له مقصوده {وممّا يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع}.

وما حادثة تأبير النخل في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذاكرتنا ببعيدة.

---

[2] أسرار البلاغة، 92-96

وفيها؛ أنّ وحـدة الخلـق تـدلّ علـى وحـدة الخـالق، حتّى لو اختلف الخلق وتعدّد، فالمثل الأوّل: مائي، والثـاني: ناري.

وفيها... وفيها.

ولكـنّ أعظـم مـا فيهـا {كـذلك يضـرب اللـه الحـقّ والباطل}.

موقع الحقّ من الباطـل، وموقـع الباطـل مـن الحـقّ، ومثل الحقّ مع الباطل.. ولمن الغلبة؟

الباطل هو زبد رابي: كان من قدر الله تعالى، وفتنتـه لخلقه، ابتلاء لهم وامتحانا، أن يكون الزبد رابيـا (أي عاليـا)، متعاظما في نفسه، منتفخـا تنفّخـا صـوريّا، ويشـمخر علـى غيره، مع أنّه فارغ الجـوف، سـاقط القيمـة، لا روح لـه، ولا حيـاة، فبوضـعه هـذا يفتتـن بـه أقـوام، ويسـرق عيـونهم وأنظارهم، فيذلّون ويخضعون له، طمعا في أن يكـون لهـم الرفعة الظاهرة معه، ورجاء أن يعلوا بهم كما علا وربى.

هذا الزبد هو حطام الشيء وفـارغه، وأوسـاخ الأرض وقمامتها، وسقط المتاع المرذول المطروح.

هذا الزبد قشّ رخيص، ونتـف الشـيء الزائـد، ممـا لا فائدة منه ولا قيمة لـه، زاد عـن حوائـج النـاس فـأنِفُوا مـن قُنبَتِهِ فرموه في قارعـة الطريـق ينتظـرون رحمـة اللـه أن تخلّصهم منه.

إي والله هذا هو الباطل وهؤلاء أهله ورجاله.

ولكن أنّى للنفوس الجاهلة أن تبصر الحقائق، وتخرق بصيرتها حجب الظواهر الخادعة فتقف على حقيقة الوجود.

ألم يقل الناس: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنّه لذو حظّ عظيم.

ما أضعف الخلق، وما أسرع سقوطهم أمام الظـواهر الكاذبة.

في زماننا هذا؛ تعاظم الشرّ وانتفخ، وصار يملأ أمـاكن الأرض وزمن الحياة، وصوره تملأ أعين الناس وقلوبهم.

فالشر صار ملكا وحاكما، لـه سـحرة يزيّنـونه للنـاس ويملؤون قلوبهم خوفا منه ومحبّة له، يقولون:

حاكمنا - أبقى الله حاكمنا!! - لولاه ما ولـدنا، فلنمـت في سبيل حاكمنا.

وحاكمنـا - أبقـى اللـه حاكمنـا!! - لـولاه مـا أكلنـا ولا شربنا، ولا طابت مطاعمنا، ولا ساغت مشاربنا.

وحاكمنا - أبقى الله حاكمنا!! -: هو الذي وهبنا الحرّية والكرامة.

وحاكمنـا - أبقـى اللـه حاكمنـا!! -: بـبركته زاد نسـل نسائنا.

وحاكمنا.. وحاكمنا.. ألا لعنة الله على حاكمنا... والله ما هو إلا {زبدا رابيا}.

والباطل صـار عـاهرة وقـوّادا؛ ولكنّـه علا فصـار بطلا ونجما، وقـدوة ومثلا يحفـظ النـاس سـيرته، وينقبّـون عـن شمائله وصفاته، ويقلّدونه حذو القذّة بالقذّة.. حتّى لـو نبـح كالكلاب لنبح عبيده مثله.

قلّـب نظـرك، واسـرح بفكـرك؛ فمـاذا تـرى أخـي الغريب... إنّها فقاعات الهواء الـتي تـزداد تنفّخـا يومـا بعـد يوم.

ولمّا تعلّق المسلمون بهذا الزبد، تعلّقوا بحقـويه مـاذا آل حالهم، وكيف انتهى أمرهم... "غثاء كغثاء السيل" .

نعـم... إنّهـم غثـاء يتعلّقـون بزبـد رخيـص مهيـن، يصرخون ويرطنون: نحن الأعلى... ألسنا فوق، ألسـنا فـي الربى تجبى إلينـا ثمـرات كـلّ شـيء، وناكـل مـن خيـرات الأرض، بأموالنـا وبترولنـا وذهبنـا نشـتري الخيـرات مـن أي جهة شئنا، فها نحن نركب المركوب الهيّـن، وناكـل الطعـام الهنيء، ونلبس اللباس الناعم.

ولذلك فأنت لا ترى أقواما في جهنّم وهم يظنّون أنّهم في الجنّة كما هو حال أهل الإسلام هذه الأيّـام، وهنـاك مـن السـحرة - رجـال إعلام، ودعـاة زندقـة، وعمـائم شـيوخ - يمارسون التزوير وإفساد العقول، فهم يصرخون ليل نهـار:

بلادنا بخير، وحالنا «ليس في الإمكان أبدع مما كان»، وحاكمنا مؤمن بصير إلى مشاشه، وبلادنا آمنة، فماذا تريدون غير هذا؟!!

- **<u>الحقّ هو الأبقى والأقوى:</u>**

الله عزّ وجلّ {له دعوة الحقّ والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلاّ كباسط كفّيه إلى الماء ليبلغ فاه - وما هو ببالغه - وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال}... وتابع الحقّ وصاحبه {وجد الله عنده فوفاه حسابه}... والله عزّ وجلّ {هو الحقّ المبين}.

من الأسباب التي تجعل أهل الجهل من الناس يُعرضون عن الحقّ ولا يتّبعوه ظنّهم أن الحقّ ضعيف، وأنّه قليل غناؤه، ومن تعلّق به لم يكن له إلا طريق الخسارة والبوار، فيستعظمون تبعة الأخذ به، والتعلّق بواجباته، ويقبلون على ما ظاهره الكثرة والقوّة، والارتفاع والعلوّ، لأنّ من جهل النفوس التعلّق بالعاجلة، والاغترار بالظاهر، وعدم الغوص إلى المعاني والحقائق الباطنة، فما هي إلا لحظات حتّى تنجلي الحقيقة فيكتشفون أنّ باطلهم لا روح له، زاهق ضعيف، وأن كثرته ما هي إلا فقاعات ماء، وتجلّى الحقّ بقوّته الهادرة يكتسح سدود الباطل كالطوفان، ويرتفع بعزّة الانتساب إلى الله تعالى، وبوفاء المؤمنين به، ويزداد قوّة بتجذّره في قلوب أهله، فلا يتخلّون عنه حتّى لو رماهم الناس عن قوس واحدة، فلا يذهب من قلوبهم حتّى يذهبوا هم إلى أجداثهم، ولا يزالون عنه حتّى تزول أرواحهم من أجسادهم، اختلط بهم وفي حشاشة قلوبهم حتّى صار منهم موضع الروح من الجسد، فهو متجذّر في صدورهم وعقولهم.

والحق سيل جارف هادر لا يعيقه شيء، إذا أقبل فهو كسيف الفجر ضياء، يفلق هامة الظلمة وينحرها، وما يملك الباطل إلا تلك المحاولة أن يغطّي النور بغربباله {يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون}.

فالحقّ هو الضياء الذي ينير الحياة، وهو الماء الذي يسقي الأرض، فتنبت خيراتها، ويحيي النفوس، ويشفي أمراضها، فالحقّ هو الذي له البقاء {وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض} فلا ينبغي لأهل الحقّ أن يحتقروا شأنه، أو يستصغروا أمره لقلّة التابع وضعفه، بل عليهم أن

يعتزّوا به، ويرتفعوا عن الباطل، فإنّ القليل مع الحقّ هو الكثير، كما قال تعالى: {كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين}، وقال: {فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين}، وها هنا نقطة مهمّة لا ينبغي لأهل البصيرة إغفالها، وهي أنّ الشيطان وجنده يحاولون أن ينفخوا في مظاهرهم الكاذبة وزبدهم العالي وذلك لشغل الناس به عن طريق سِحَاليّ الإنس - أي الخطباء والبلغاء - من رجال الإعلام حتى يلتبس على أهل الحقّ حقّهم، فها أنت ترى الإعلام المقروء والمرئيّ يملأ أعين الناس وأذانهم وعقولهم وقلوبهم بالأحداث الباطلة، والتي لا قيمة لها؛ فموت فاجرة يشغل الناس ويملأ الدنيا، وولادة قطّة أو كلب تكون على صفحات الصحف، وتزوّج عاهر وعاهرة يدخل خبره إلى بيوت الناس وخدرهم...

أمّا إن جئت إلى الأخبار الجليلة العظيمة، والأحداث الإيمانية العالية، سواء كانت من أخبار الجهاد والمجاهدين، أو موت العلماء والصالحين، أو سجن الدعاة والمؤمنين، فإنّك قلّما تجد من يحسّ لهم خبرا، أو يسمع لهم أنينا، حتّى أنّك تجد إعراض المسلمين عن هذه الأخبار بل استصغارها لأنّها ليست بالأخبار العالمية كما يزعمون، ولم تتلقّفها صحف وشاشات الغرب، وكأنّ مقياس العالمية والقوة هو ما يشغل أهل الزندقة والشرك.

فحسبنا الله ونعم الوكيل.

فالواجب على المسلم أن لا ينشغل إلا بأهل الحقّ وأعمالهم وأخبارهم ولا يقيم شأنا لموت فرعون {فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا مُنظَرين}.

فانظر بالله عليك إلى قيمة فرعون هذا!! وهذا كلّه أدب قرآني وسبيل إيماني، فإبراهيم عليه السلام كان أمّة وحده، وليس على الأرض مؤمن سواه مع زوجه عليهما السلام، ومع ذلك هو أمّة وحده، وبقيّة الناس غثاء وزبد لا قيمة له ولا أهمّية.

هذا هو قدر الله تعالى، وهذا سبيله، فمن تعلّق بالحقّ كان ثقيلا في ميزان الله، ومن تركه كان ميتا لا قيمة له، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: (مثل الذي يذكر ربّه والذي لا يذكره مثل الحيّ والميّت).

والحمد لله ربّ العالمين

منبر التوحيد والجهاد

* * *

sw.dehwat.www//:ptth
sw.esedqamla.www//:ptth
ofni.hannusla.www//:ptth
moc.adataq-uba.www//:ptth

تم تنـزيل هذه المادة من
منبر التوحيد والجهاد

sw.dehwat.www//:ptth
moc.esedqamla.www//:ptth
ofni.hannusla.www//:ptth
moc.adataq-uba.www//:ptth